الكلام ، وبدون تعقل ولاتحكم ولاميزان ، والذين لايقدرون على كتم أسرارهم ولاحفظ أسرار غيرهم ... أولئك مافدروا نعمة اللغة ، وأمانة اللسان ، وماهيّة الكلام ،أن كثرته ماهي إلاعلامة على خفة العقل ...

والأبيات الآتية أراها مناسبة في مثل هذا المقام ، وهي لصالح عبدالقدّوس ، وهو شاعر عبّاسي ، شعره ملئ بالحكم والآداب والأمثال ، يقول :

وزن الكلام إذا نطقت ولاتكن ثرثارة في كل نادٍ تخطب
واحفظ لسانك واحترز من لفظه فالمرء يسلم باللسان ويعطب
والسر فاكتمه ولاتنطق به إن الزجاجة كسرها لايشعب
وكذاك سرك أنت إن لم تطوه نشرته ألسنة تزيد وتكذب

٣- فروق لغوية : (الجَنّة - الجِنّة - الجُنّة)

١- الجنة : بفتح الجيم : أي البستان ، ومنه الجنات ، والعربُ تُسمي النخيل (جنة) ، والشئ الجميل أوالحال الطيب ، يقال عنه : (جنة) ونوع من النباتات ذات الروائح العذقة يعرف بالجنة .. والجنة قبل هذا وذاك ، هي جائزة المؤمنين الموحّدين المخلصين ، وموعدهم من الله تعالى في الآخرة ،

نعمت جزاء المتقين الجنة *** فيها الأماني والمنى والمنّة

٢- الجِنّة : بكسر الجيم أي الجنّ ، وقال تعالى { من الجنة والناس } ومنه قوله تعالى {وماخلقت الجن والإنس إلا ليعبدون } والجِنة أيضاً : الجنون . ومنه قوله تعالى : {أتواصوا به أم به جِنّة } .

٣- الجُنة : بالضمّ ، ماستترت به من سلاح ، والجنة : السترة ،وجمعها : (جُنن) ، والجنة : الوقاية والحصانة ، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم : (الصوم جُنة) - للمراجعة / إنظر مختار الصحاح في باب (ج ن ن) .

في فقه الملة الجامعة

الحلقة السادسة والأخيرة

إعداد / احمد بن سلام
هولندا

البدعة أساس الإفتراق

إذا رجعت إلى حديث الإفتراق موضوع البحث وجدته يصف الإفتراق بوصفين متلازمين ، فحديث عوف بن مالك رضي الله عنه ذكر من الإختلاف وصف المختلفين وهم الفرق المختلفة :

" افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة ، فواحدة في الجنة وسبعون في النار ، وافترقت النصارى على ثنتين وسبعين فرقة فإحدى وسبعين في النار وواحدة في الجنة ، والذي نفس محمد بيده لتفترقن أمتي على ثلاث وسبعين فرقة واحدة في الجنة وثنتان وسبعون في النار ، قيل : يارسول الله ، من هم ؟ قال الجماعة " (١)

بينما نجد حديث عبدالله بن عمر يتناول سبل الإختلاف ، وهي الملل : " وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين ملة ، كلها في النار ، إلا ملة واحدة : ما أنا عليه وأصحابي " (١)

ومما يؤكد هذا الملحظ أن خاتمة الحديث الأول ذكرت مناط النجاة مسنداً إلى

١- سبق تخريجه .

الجماعة ، بينما ورد في خاتمة الحديث الثانية مسنداً إلى المنهج : (ما أنا عليه وأصحابي)

وأذا علمت أن وصف الإجتماع والجماعة إنما يستحق مدح الشارع واستحسانه إذا كان إجتماعاً على الصلاح والبر والخير كما في قوله تعالى : { وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان }(١)

وأن الإجتماع على الشر مذموم مثل الإفتراق عن الخير : { وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إذاً مثلهم إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعاً }(٢)

إذاً فالجماعة الناجية المذكورة في الحديث هي التي كانت على ماكان عليه النبي صلى الله عليه وسلم ، وهي تشمل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومن سلك ملتهم التي كانوا عليها ، فمعنى الوصف الذي علق النبي صلى الله عليه وسلم النجاة به في كلا الحديثين واحد من هذه الجهة .

إلا أن إجتماع الوصفين في الحديث يفيد أن الإفتراق الذي ذكره الحديث يكون إفتراق ثلاث وسبعين فرقة من المسلمين ، على ثلاث وسبعين ملة ومنهج ، وأن كل فرقة من هذه الفرق تتبع منهجاً غير منهج غيرها من فرق الأمة .

فيستفاد من منطوق الحديث النبوي أن هذه الأمة كانت جماعة واحدة على ملة واحدة ، وأنها تتفرق إلى ثلاث وسبعين جماعة أو فرقة ، على ثلاث وسبعين ملة أو طريق أو سبيل .

والمؤمن بعصمة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وصفاء ملته التي جاءنا بها من كل شائبة أو دخن ، وأن سنته التي أخرجت الناس من الظلمات إلى النور تهدي ولا تضل ،

١- المائدة : ٢ .

٢- النساء : ١٤٠ .

وتؤلف ولا تنفر ، وتبني ولا تهدم ، وتجمع ولا تفرق ، يعلم يقيناً أن سبب الإفتراق هي البدع والمحدثات التي ألصقها بالدين تحريف الغالين وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين .

ومما يبين لك هذا ماجاء في حديث عمرو بن سلمة عن عبدالله بن مسعود قال : (كنا نجلس على باب عبد الله بن مسعود قبل صلاة الغداة ، فإذاخرج مشينا معه إلى المسجد ، فجاءنا أبو موسى الأشعري ، فقال : (أخرج إليكم أبو عبدالرحمن بعد) ؟ قلنا : لا ، فجلس حتى خرج ، فلما خرج إليه جميعاً ، فقال له أبو موسى : (ياأبا عبدالرحمن ، إني رأيت في المسجد آنفاً أمراً أنكرته ، ولم أر والحمد لله إلا خيراً) قال : (فماهو) ؟ فقال : (إن عشت فستراه ، قال : رأيت في المسجد قوماً حلقاً جلوساً ، ينتظرون الصلاة في كل حلقة رجل ، وفي أيديهم حصى ، فيقول : كبروا مائة فيكبروا مائة ، فيقول هللوا مائة فيهللون مائة فيقول سبحوا مائة فيسبحوا مائة . قال : (فماذا قلت لهم) ؟ قال : (ماقلت لهم شيئاً إنتظار رأيك) ، قال : (أفلا أمرتهم أن يعدوا سيآتهم وضمنت لهم أن لا يضيع من حسناتهم شئ ؟ ثم مضى ومضينا معه ، حتى أتى حلقة من تلك الحلق فوقف عليهم ، فقال : (ماهذا الذي أراكم تصنعون) ؟

قالوا : (ياأبا عبد الرحمن ، حصى نعد به التكبير والتهليل والتسبيح) قال : (فعدوا سيآتكم ، فأنا ضامن أن لا يضيع من حسناتكم شئ ويحكم ياأمة محمد ، ماأسرع هلكتكم ، هؤلاء صحابة نبيكم صلى الله عليه وسلم متوافرون ، وهذه ثيابه لم تبل وآنيته لم تكسر ، والذي نفسي بيده إنكم لعلى ملة أهدى من ملة محمد صلى الله عليه وسلم ، أو مفتتحوا باب ضلالة) ، قالوا : (والله ياأبا عبد الرحمن ماأردنا إلا الخير) قال : (وكم من مريد للخير لن يصيبه ، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم حدثنا : (إن قوماً يقرأون القرآن ، لا يجاوزتراقيهم) وأيم الله ماأدري لعل أكثرهم منكم) ، ثم تولى عنهم ، فقال عمرو بن سلمه : (فرأينا عامة أولئك الحلق يطاعنونا يوم النهروان مع

١- رواه الدارمي في سننه (٧٩/١ - ٨٠) وصححه شيخنا الألباني ، أنظر الصحيحة (٥ / ١١)

الخوارج(١)

والحديث أصل يضئ طريق الإتباع المبصر ، وآية من آيات فقه الصحابة ، وشدة إدراكهم لإسباب الفرقة والضلال ، وفهمهم لعواقب الإنحرافات عن منهج السنة ، والتنبؤ بخطورته ، ومن أهم معانيه :

١- أن بداية إنحراف الخوارج - وهم الذين يصفهم الحديث - كانت في التعبد بالرأي ، دون طلب العلم من سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهي الغضّة المنتشرة ، إذا لم يمض على وفاة صاحبها أمر طويل ، كما يشير كلام ابن مسعود رضي الله عنه ، وكذلك رغبوا عن التعلم من أصحابه المتوافرين كما قال الصحابي الجليل .

فالحلق التي ذكرها الحديث لم يكن لها إسم تعرف به ، وكان كلام ابن مسعود رضي الله عنه معهم ، وردهم عليه أولى الدلائل التي أشارت إلى بداية ظهور هذه البدعة .

٢- أفاد الحديث أن من طلب الخير في غير سنةرسول الله صلى الله عليه وسلم ورغب عنها فقد إنسلخ من منهج القرآن ، بدلالة استشهاد ابن مسعود بالحديث على حالة القوم ، وتنبئه أن أكثر المنسلخين من القرآن هم من أولئك المتحلّقين .

ومن انسلخ من القرآن فقد فارق الجماعة بلا ريب ، ولذا أقسم الصحابي الجليل الذي ينطق بفقه النبوة أن القوم مفتتحوا باب ضلالة وأنهم على ملة غير ماكان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكانت العلامة التي رآها فيهم التسبيح بالحصى في حلق ، يقود كل حلقة رجل !!!

فأين الفقهاء الذين يزعمون أن في الدين بدعة حسنة من هذا الفقه ؟ وأين المقلدين الظانين أن مثل هذه الأمور لا ضير فيها ؟ وأنها لا يجوز أن تفسد للود قضية ؟ ؟ ألا فليتق الله أقوام يغضبهم إنكار البدعة ، وليعودوا إلى أنفسهم ، فإنهم لن يكونوا أفقه ولا أحرص من ورثة منهاج النبوة ، أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وحواريه !

٣- إن الغلو في العبادة ، وهو صفة للخوارج كما جاء في كثير من الأحاديث الصحيحة هو شر في ذاته ، فلا يجوز إعتباره من أسباب الإعتذار للمبتدع في بدعته ، كما هو إعتذار بعض الناس للمتصوفه ، بل هو ظلمات بعضها فوق بعض ، تصم وتعمي ولا تترك للهداية منفذاً إلا أن يشاء الله ، فكيف إذا كان المبتدع من الدعاة إلى بدعته ، الموالين عليها ، المبغضين فيها ؟

وكذلك إخلاص المبتدع وصدقه ، فقد ينفعه مع الله ، ويسقط عقوبته ، ولكنه لايمنع الدعاة من بيان البدعة ، والتحذير ممن يدعو إليها ، وهذا عبدالله بن مسعود رضي الله عنه يجلجل صوته : والذي نفسي بيده إنكم لعلى ملة أهدى من ملة محمد صلى الله عليه وسلم !! أو مفتتحوا باب ضلالة !!

فاحذر أيها المدلج على درب السنة أن يمنعك حبك الرجل أو طول صحبة أو علو مكانة ، أو كثرة إتباع من بيان حقيقة البدعة ، والتحذير من حاملها الداعي إليها ، بل إن إجلالك لمبتدع نذير شر في الطوية فبادر إلى النجاة ولا تسوف .

إن الأمة التي أختلفت أغراض أفرادها ، ومفاهيمهم وأحكامهم التي ينطلقون منها ومبادئهم التي يصدرون عنها ، هي تحكي حقيقة الفرقة التي تزيّت بزي الإئتلاف ، فكانت لابس ثوبي زور تخدع نفسها وغيرها بما لبس فيها ، كما قال تعالى : { تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى ذلك بأنهم قوم لايعقلون }(١)

وإن أمة يكون فيها ثلاث وسبعون فرقة على ثلاث وسبعين ملة لاعجب أن تعد بمئات الملايين وتراها غثاء كغثاء السيل ، وقصعة ينتهبها شرار الأكلة .

١- الحشر : ١٤